

أن نكون صادقين مع أنفسنا

عندما علم العالم الطبيعي (ميرلين تيرتل) بخطة لإبادة ملايين الوطاويط ذات الذيل الحر والتي اتخذت لها من ممر فوقي (كوبري) في (أوستن) بتكساس موطناً، أطلق حملة حرة ومفتوحة لتعليم السكان المجاورين بأهمية الوطاويط وقيمتها. وقد أثبت (تيرتل) للموظفين الرسميين وللشخص من المواطنين أن الوطاويط ليست لطيفة فقط ولكنها ضرورية بالنسبة إلى الاقتصاد المحلي لأنها تستهلك ملايين الحشرات التي لولا ذلك لدمرت المحاصيل الزراعية المحلية أو لاستدعت استخدام المبيدات الحشرية المؤذية والغالية الثمن. وقد أظهر فوق ذلك أن غزو الحشرات بأعداد كبيرة يمكن أن يقلل من السياحة⁽⁴⁷⁾.

ونتيجة لذلك يحتل المتنزهون في الليل مواقع لهم اليوم في (أوستن) وقريباً من هذا الممر الفوقي ليراقبوا ظهور

(47) (تاتل. إم. دي) في (وطاويط شمال أمريكا) الجغرافية القومية 2/188، 1995، الصفحات 36 - 57.

الوطاويط الليلي من تحت الجسر وهم يحيونهم وكأنهم أبطال الطبيعة .

وكان ما يدفع (تيرتل) هو إيمانه أنه إذا فهم الناس الطبيعة الحقّة للوطواط وأهميته لهم فإنّهم سيغيّرون سلوكهم؛ وكان محقّقاً في ذلك: فمن خلال التعليم والوعي انقلب الوضع رأساً على عقب، والوطاويط التي كان الناس يخشونها ذات مرة أصبحوا يحتفون بها .

وإذا أمكن أن تتغير مواقف وسلوك الناس تجاه الطوايط، فلربما أمكن تغيير الطريقة التي يتعاملون فيها مع بني جلدتهم أيضاً . ويمكن للنمط النفسي أن يساعد في ذلك . والتسامح والتكيّف أهداف جديرة بالمجازفة من أجلها؛ كذلك فإنّ تعديلاً صغيراً واحداً في تعاملك - كأن تسأل الآخرين ماذا يقصدون فعلاً قبل أن تبدي لهم ردة فعلك - سيجعل من هذا الكتاب كتاباً جديراً بالقراءة بالنسبة إليك وجديراً بالتأليف بالنسبة إلينا . وكما يجب أن يكون قد توضح لك حتى الآن فإننا ننظر إلى النمط على أنه معلّم الإرادة الطيبة ومعلّم التحسين العام في العلاقات الإنسانية .

رحلتنا

لقد سألنا أنفسنا قبل كتابة هذا الكتاب «ما الذي نعرفه بشكل مؤكّد حول السلوك وحول النمط النفسي؟» فهناك قصص ونوادر وملاحظات هامشية حول النمط ولكننا كنا نريد أن نُعتمد

التجارب والملاحظات لا مجرد تنبؤات وتكهنات. وفي حين أن النواذر تخدم غرضاً معيناً فقد كنا نريد أن ندرس السلوكات الملحوظة التي هي مظاهر للنمط أكثر من دراسة قصص حول النمط. وبالإضافة إلى رغبتها في أن نبقى مخلصين للمعلومات كذلك كنا نرغب في أن نبقى مخلصين لنظرية (كارل يونغ) في النمط النفسي.

ومع تقدمنا في هذا المسار بدأت تتوضح لدينا نقطتان هامتان وبشكل متزايد: وكانت الأولى منهما هي الإدراك المُنذر بالخطر أن كلاً من النمط النفسي كما أدركه (كارل يونغ) و(إيزابيل مايرز) وكذلك الأفراد الكثيرون المعرضون له قد أُسيء استخدامها بشكل فادح بسبب التطبيقات الشائعة للنظرية وذلك عبر الاستخدام غير المناسب لمؤشر (مايرز - بريغز) في جرد أنماط الشخصية. ويخرج الكثيرون من العرض أمام هذا المؤشر ظانين أن النتائج هي أفضل أو أسوأ من غيرهم، أو معتقدين أن النمط يسبب السلوك أو يؤدي إليه بالضرورة. ومثل هذه الخواطر تتعارض مباشرة مع معظم المعتقدات الأساسية في نظرية الأنماط والتي توضح بشكل صارم أنه ليس هناك في الأصل نمط أكثر جدارة من نمط آخر وأن الميول لا تسبب ولا تؤدي إلى السلوك. ومن الاستخدامات السيئة للنمط أن تلجأ إليه ليجد لك عذراً ومخرجاً من سلوك غير مقبول. كأن تقول «لا يمكنك أن تتوقع مني أن أكون فوري الفعل، فهذا ليس

نمطي» تقول ذلك في تفسيرك لأداء تعيس. أو أن تقول «أظن أننا قد ارتكبنا خطأ في وضع ذلك النمط في قسم المسترجعات» وذلك كي تضع اللوم على الآخرين، أو أن تقول «لو أخرجت رأسك من الأوهام والتفتت إلى الاهتمام بالتفاصيل فما كنا لنكون في هذه الورطة» حتى تسقط على دوافع الآخرين، أو أن تقول «الأشخاص من أمثالك لا يهتمون إلا بمستوى القعر والقاع!» أو أن تقول من باب التنبؤ بكفاءات الفرد: «إنني أستأجر سكرتيرات من نوع معين فقط». وثاني ما أدركناه هو أنه في حين أن هناك نقاط معلوماتية تجريبية كثيرة تدعم نظرية النمط وتستقصي مختلف السلوكات، فإن تعقيد الخبرة الإنسانية وغناها يجعل من هذه الدراسة أمراً متسماً بالفوضى. وكثير ممن خاضوا في المياه المظلمة الضبابية والمذكورون أعلاه إنما يفعلون ذلك من باب الرغبة في أن يوجد النمط ومؤشر (إم. بي. تي. أي) لجرد الشخصية إطار عمل منظم وأنيق لأنماط مغلقة فيما بينها يمكنهم بواسطتها تفسير السلوك الإنساني والتنبؤ به. والحقيقة هي أن أيّاً من النظرية أو مؤشر جرد الشخصية لم يصمّم كي يقوموا بذلك؛ يقول (يونغ) نفسه «ليس الهدف من دراسة الأنماط النفسية تصنيف الكائنات البشرية في أنماط معينة. لأن هذا بحدّ ذاته لا معنى له»⁽⁴⁸⁾. لذلك وبعد الخوض في الفوضى والتعقيد قادتنا

رحلتنا في البحث والتأمل إلى مستويات عديدة في تطبيقات النمط وهي الموضحة في هذا الكتاب. وأملنا أن تجدوا في كل مستوى غنى ووجهات نظر جديدة تتعلق بكم وبالأخرين يُمكنها أن تدفع بكم خطوة أخرى لا تقرّبكم من فهم الفروقات بين الناس فحسب بل نحو تقييم واحترام هذه الفوارق.

الحياة هي النصّ والنمط هو رديف النصّ

الحياة هي النصّ: كيف نحيّاها ونعربد فيها وندمرها ونستنزف قصصنا الفردية فيها، هي المكان الذي تقطنه القيمة الحقيقية للنمط. والنمط النفسي كنصّ رديف من بين نصوص رديفة أخرى كثيرة يعطينا الإرشادات من خلال الحياة والتي نستطيع إن شئنا أن نتجاهلها أو أن نحفظ بها في صورتنا الخلفية. ويصعب عملياً أن نأخذ مثل هذه المواضيع الشخصية على محمل الجد عندما يعج العالم بالحروب والناس الجياع والاقتصادات تخضبها الدماء والحكومات في أرجاء العالم على شفا الهاوية. ومع ذلك فإننا إذا استطعنا أن نحسّن قدرتنا على العمل مع الآخرين فإننا بذلك نسهم في تحسين حال الجميع.

إننا إذا استطعنا أن نعلّم الأطفال والبالغين والزملاء بالقدوة والمثل أن يتواصلوا بشكل أكثر فعالية وأن يتطوّروا تطوراً أكمل وأن يقدرّوا الآخرين تقديرًا حقيقياً، فإننا بذلك نسهم ونشارك في خيرنا جميعاً. ويمكن للدروس المستقاة من

النمط أن تساعدنا في إنجاز هذه الأهداف إن تعلمناها واستخدمناها.

إننا بعد أن أدخلنا الآلاف من الأفراد حلقات بحث حول النمط السيכולوجي أصبحنا واثقين أن كثيراً من الناس قد تعلموا فيها وللمرة الأولى أن طريقة عمل عقولهم طبيعية وصحية وممتازة جداً. لقد قال الكثيرون «لو أنني علمت بذلك من قبل لكنت عملت الأمور بشكل مختلف»، ويقصدون أنهم كانوا سيتدبرون أمر الحالات الصعبة بفعالية وبإنسانية أكثر مما فعلوه. ونحن ولسوء الحظ مقتنعون مثلهم أن نفاذ البصيرة يتوقف عند المقدمة والتعريف. فهم يتعلمون أموراً عن الميول ويتعلمون مختلف ديناميكيات الأنماط ثم يُخفقون في استخدامها حسب قدراتهم الكامنة. ونادرة هي الحالة التي يعمل الأفراد فيها فعلاً من خلال مغزى هذه المفاهيم الأساسية؛ لا بل ينذر أن تجد تطبيقاً لتلك المفاهيم بهدف تغيير السلوك تغييراً حقيقياً.

لقد تناقشنا طوال مسيرة هذا الكتاب أن النمط هو نموذج قوي يفسّر بنية عمليات عقولنا؛ فنحن ندرك ونحكم، ونحن ننفتح أو نغلق، ونحن نعيش بطرق معينة تكوّن وتوجد النماذج والأشكال. ومثلها كمثال العلامة التي توضع في الورق الناعم (ولا تُرى تماماً)، فإن النمط منقوش في نسيج شخصيتنا. ويتجلى التحدي بالنسبة إلينا عندما نتذكر أن نبحث عن الاختلافات كجزء من مساعيها للتواصل مع تقييمنا للآخرين ونحفّزه ونعبّر عنه. ويجب أن نجد

الكرامة أيضاً في نمطنا أثناء عملنا لتطوير نقاط قوتنا ونجوب عبر عقبات وفرص سن البلوغ. وما أن تُحبي بموهبة الفهم التي يقدمها إليك النمط حتى تصبح مسؤوليتك عندئذ أن تتعرف على أهمية الناس جميعاً ومساهماتهم، ممّن يرون العالم بطريقة مختلفة عنك - أولئك الذين يحملون في قرطاسهم علامة مختلفة ولكنها علامة متقنة الصنع أيضاً.

يوجد النمط في الصورة الخلفية للعلاقات الإنسانية لا في مقدمة الصورة. وفي النهاية فإن النص المكتوب على العلامة الورقية هو الذي يقصّ القصة. والقصة مكوّنة من الخبرات والخلال والميول والعوامل المكانية وحشد من القوى التي لا نستطيع أن ندخل إليها من خلال الحديث بسرعة. وعندما نتعلّم كيف ننظر إلى ما وراء النص وإلى العلامة الورقية عندها قد نبداً بفهم التعابير المفضلة وحدود الإدراك والحاجات التي تولدها تلك الحدود.

ملاحظة المترجم: يكرّر المؤلف استخدام مثال الـ Watermark. وهي تعني في الأساس العلامة المائية التي نقيس بها ارتفاع أو انخفاض منسوب المياه. ولكنها تعني أيضاً علامةً أو رسماً (وربما قالباً معدنياً) يوضع في نسيج الورق ولا يُرى إلاّ عند رفعه حتى يصبح بين العين والنور، نميّز بها مختلف الأصناف. وقد سمّيها (العلامة الورقية).

ويزودنا النمط النفسي على أقل تقدير بنماذج لوجهتي نظر

ثاقتين في الطبيعة البشرية: والأول هو نموذج لفهم الفروقات البشرية والتي تقدّم لنا بدورها فرضيات حول من يختلف عنا من الناس ولكّتهم لا يعطون قيمة أكبر لنمط على نمط آخر. والثاني هو النموذج الذي يزودنا بأسئلة أساسية تساعدنا في حل المشاكل في أي وضع أو تعامل.

والنمط كنموذج بناء في الفروقات البشرية يبيّن لنا بوضوح أننا كلما تورطنا في تعامل ما فإن هناك عدة قوى عاملة تدعمنا في التقييم وتعيقنا فيه أيضاً. يُعلّمنا النمط مثلاً أن بعض الأشخاص بحاجة إلى التحدّث في المواضيع والخطوات التي يرونها وذلك بغية الوصول إلى الوضوح، بينما ينبئنا الآخرون بما قد قرّره واستنتجوه. وينبئونا النمط أن بعضنا يعوّل على الوقائع حين اتخاذ القرارات وأن البعض الآخر يعتمد على الاحتمالات؛ والقرار التحليلي مهم كأهمية القيام بالاختيار المتناغم مع شبكة من التداعيات، لذلك فالأمر الوحيد المهم هو ماهية الاستجابة المناسبة لوضع محدد. وباختصار، فالنمط يسمح لنا بفهم الفوارق وهو أمرٌ يدعونا للنظر في مجموعة أخرى من التساؤلات قبل القفز إلى الاستنتاجات.

فكّر بالوالد الودي الذي يتوصل إلى أن يفهم أن طفله المنضبط والحذر والحريص ليس خائفاً من التحديات ولكّته ينتقل بينها بشكل مختلف. وعندما لا يكتفي الوالد بتفهّم الاختلاف بل يعمل بأساليب تؤكّد على أسلوب الطفل وتثبّته

بدل أن تغيّره وتبدّله، عندئذ يكون الوالد قد تعلّم أهم درس من دروس النمط. والأستاذ الذي يعلم أن بعض الصغار بحاجة إلى أن يرتبطوا بخطة عامة وذلك قبل أن يكملوا مسألة أو واجباً، وهو في أسلوبه التدريسي يعكس تلك المعرفة، هذا الأستاذ قد عرف قوة النمط في إعطاء دافع وحافز للآخرين. والرئيس الذي يبدأ بتمييز أن المستخدمين مدفوعون ومحفزون بأمور وعلاقات متبادلة مختلفة والذي يتصرّف تصرفاً مختلفاً نتيجة لذلك. هذا الرئيس (أو رب العمل) قد بدأ يهتم الفائدة العملية للنمط. وليست الأمور التي تختلف عن بعضها بالضرورة أفضل من بعضها ولا أسوأ من بعضها البعض؛ ونبتة (القرانيا) ونبتة الكرز هما شجرتان مختلفتان ولكنهما كلاهما يُزهران وكلاهما جميلتان في الربيع.

وحتى ولو رفضنا أن يكون النمط تفسيراً للفروقات البشرية وأن يكون قابلاً للوظائف الفكرية، فإننا لا نزال نستطيع أن نأخذ منه أسئلة مُعينة قابلة للتطبيق في البيت أو العمل.

- من أجل إتمام العمل والفوز بخاتمة ناجحة، هل يحتاج الأشخاص المعنيون إلى بيئة تزودهم بالدافع المنتظم والانفتاح على الأفكار المفاجئة والحوار؟ ومن أجل حل مشكلة ما، هل الوصول المنتظم إلى المعلومات والاستجابات ضروري لزيادة فرص اتخاذ قرار حكيم؟ هل تجد أنت أو من حولك الوضوح في الأوضاع

بانفصالك عن المحيط والعمل من خلال المعلومات التي في رأسك قبل أن تشارك الآخرين فيها؟ وفي حل المشاكل، هل سمحت بالوقت الكافي بين التعرّض للمعلومات والاستجابة المطلوبة حتى تستطيع أنت وغيرك أن يبدلوا أفضل الجهود؟

- هل كل الوقائع في أفضل حالاتها وأوصافها على الطاولة أمامك؟ وفي حل المشاكل، هل تجمع المعلومات المادية والصلبة كي تعطيك الحقائق والاتجاهات الراهنة المطلوبة لتعلن عن قرارك؟

- هل فكرت أن تقتنع بالنتائج المستقبلية والنتائج المحتملة أكثر مما تقتنع بالاتجاهات الراهنة؟ وفي حل المشاكل، هل تتفحص النماذج في المعلومات والمعطيات وتكافح للتفكير في أوسع وجهة نظرية عالمية؟ هل وضعت مخططاً للمزايا والمساوئ وهل وازنت بين البدائل والخيارات بمقاييس موحدة، وهل عايرت القيمة النسبية لكل المتغيرات؟

- هل يأخذ اتخاذك للقرارات بعين الاعتبار تأثير القرار النهائي على الناس، والآثار البعيدة المدى على علاقاتهم، وطريقة انعكاساتها على القيم والروابط التي تعتر بها؟

- هل وضعت موعداً نهائياً أو هدفاً أو توجهاً لنشاطك الحالي؟
- هل سمحت بفرص لإعادة طرح مسألة أو سؤال ما،

ولإعادة تفحص قرار ما، ولمتابعة معلومات مناسبة إضافية؟

اطرح كلاً من هذه الأسئلة وأنت تعمل في حل مشكلة ما وستجد أنك قد قلبت كل حجر في طريقك على عقبيه. حسناً، فالأسئلة النقية تخترق الضباب وتستطيع أن تمنح كلاً منا طريقة للتخاطب مع أعقد المشاكل.

ونأمل من كل قلوبنا أن يحافظ الناس على تفردهم وعلى المظاهر الخاصة بشخصيتهم كما نأمل أن يحترموا الجسور المشتركة بين كل الأفراد العاديين بغض النظر عن الجنسية أو العرق أو الجنس أو أي من آلاف الحدود الأخرى التي نقيمها فيما بيننا. ونحن نعتقد أن النمط النفسي هو الجسر وهو الذي سيزودنا بفرصة تدفعنا إلى الأمام إفرادياً وجماعياً في العلاقات الإنسانية. ويبدو لبعض الناس أن هذه الجسور قد أغلقت في الوجوه منذ زمن طويل جداً مُحدثةً حواجز في وجه التفاهم والتطور. وفي العالم الدائم التغيير والانكماش والمسمى والمعروف الآن بالقرية العالمية نجد أن النمط هو الهبة والهدية. فهو اللغة التي يمكنها أن تفتح الأبواب فيما بيننا ما دما نقدّر ونُجلّ غناها وتعقيدها اللذين هما انعكاسان للأعجوبة والتفرد لدينا جميعاً.

قال (يونغ) مرةً اعتماداً على خبرته أن «الناس لا يسعهم تفهم وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظرهم أو القبول بها...»

الرفق والتسامح والنية الطيبة قد تساعد على إقامة جسر فوق الهوة التي يشقّها ويوجدّها انعدام التفاهم بين الإنسان وأخيه الإنسان»⁽⁴⁹⁾. نأمل أن نكون قد قدّمنا إليك دليلاً كافياً ودافعاً قوياً للبحث عن التسامح والإرادة الطيبة في داخلك، ليس لمجرد أن تستطيع فهم الآخرين ولكن كي تقيّمهم وتقديرهم، وكي تشكرهم لأنّهم قد جعلوا حياتك غنية. لأن النمط في النهاية أقل أهمية من كيفية معاملتنا لبعضنا البعض وكيفية استماعنا وكيفية تقديم التشجيع وإظهار التقدير. ولا يمنحنا النمط إلّا الحافز لنعترف أن هناك اختلافات جديرة بالاهتمام؛ هذه هي الهبة الحقيقية والمسؤولية التي يخلفها. استمتع واهنأ.

(49) نفس المصدر، الصفحة 489.